العلاقة بين صلاح الدين وابى يوسف يعقوب

المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى بدأت خلافة الامويين بقرطبة تضمحل ، وهكذا بدأت حركة الغزو المسيحية بالاندلس (La Reconquista) تأخذ شكلا جديا مزعجا .

تزعمت قشتالة هذه الحركة ، وساعدتها الممالك الاسبانية الفتية الاخرى مثل ليون وأرجون ثم البرتغال على زحزحة حدود الاسلام نحو الجنوب يوما بعد يوم . واضطرت العناصر العربية فى الغرب الاسلامى اثر ذلك أن تترك المجال الى العناصر الوطنية « البربرية » للقيام بحماية أرض الاسلام والدفاع عن حدوده فى تلك الجهات . هكذا قامت دولة المرابطين ، وتمكنت من ضم الممتلكات الاسلامية بجزيرة الاندلس الى المغرب ، وتوحد بذلك الغرب الاسلامى بصفة جدية لاول مرة ، وبدأ يتحرر بشكل واضح من الوصاية التى فرضها عليه الشرق الاسلامى والخلافة ـ ولو بصفة نظرية معنوية . وبدأ الجهاد من جديد ضد أعداء الاسلام فى أسبانيا ، لاستعادة الاراضى التى فقدها المسلمون ابان ضعف خلافة قرطبة وبعد سقوطها . وألحق بممالك النصرانية فى شمال الجزيرة هزائم كثيرة كما دفع حدودها شمال نهر تاجو . ويعتبر الانتصار الاكبر الذى أحرزه يوسف بن تاشفين فى الزلاقة ((Sacralias)ـ ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) ـ والذى اقترن باسمه وخلده فى صفوف المجاهدين ـ ذروة المجد التى بلغها المرابطون .

فى هذا الوقت الذى تجددت فيه قوات المسلمين فى غربى البحر

المتوسط اكتسح الصليبيون البلاد الاسلامية فى شرقى ذلك البحر واستولوا على بيت المقدس ٤٩٢هـ / ١٠٩٩ م . وبذلك اتسع نطاق الصراع بين أوروبا المسيحيـة التى شعرت بقوتها ودولة الاسلام ، واتخذ شكل حرب عامة عبأ لها انفريقان كل قواهما المـادية والبشرية . دارت هـذه الحرب منذ ذلك الوقت فى جبهتين أو ميـدانين ثابتين : سوريا وفلسطين فى الشرق حيث كان الفرنج يكونون نواة الجيوش الصليبيـة والترك نواة الجيوش الاسلاميه ، والاندلس فى الغرب حيث دار القتال بين الاسبان ــ يعاونهم الاقطاعيـون من أنحاء أوروبا لاسيمـا الفرنج ــ وبين البربر ينـاصرهم العرب فى تلك الجهات .

ثم بدأ القرن الثانى عشر باستقرار الصليبيين فى الشـام ، وضعف دولة المرابطين فى المغرب حيث ظهرت دولة بربرية جـديدة هى دولة المصامدة أو دولة الموحدين أتباع محمد بن تومرت .

قام ابن تومرت بحركته كمصلح دينى أو « آمر بالمعروف » وساعدته الظروف ولاسيما تعلمـه بالمشرق على جمع شتات قبائل المصامدة بجبـال درن (أطلس) ، وكون حزبا أو مذهبا جديدا هو حزب الموحدين ، هدف هذا الحزب هو الرجوع بالاسلام الى مبادئه النقية الاولى ، والقضاء على الاختلافات المذهبيـة ، وتبعا لذلك تحقيق وحدة عالم اسلامى فتى يمكنه معاودة الفتوحات فى أرض الكفار .

نظم ابن تومرت حزبه الجـديد على أساس عسـكرى دينى ، وانفرد بالزعامة الدينية متخذا لقب المهدى أو الامام المعصوم ، وترك لتابعه المخلص عبد المؤمن بن على الزعامة العسكرية للحرب .

واصل عبد المؤمن بعد موت ابن تومرت الصراع ضد المرابطين فاستولى على مراكش (٥٤١هـ / ١١٤٦م) وطرد النورمانديين من افريقيـة ، وتمكن من توحيد المغرب كله ، ثم بدأ فى غزو الاندلس .

واتخذ عبـد المؤمن لقب « الخليفة » قاطعا بذلك وبصفة نهائيـة كل تبعية ــ ولو شكلية ــ بين المغرب وخلافة بغـداد ، مكونا من أسرة خلافية

جـديدة هى أسرة الموحـدين التى أخذت على عاتقها مواصلة الجهـاد فى أسبانيا ، وتمكنت من رد النصـارى بعيدا عن ممتلكات الاسلام شمال نهر تاجو ؛ بل وتوغلت فى أرض «الكـفار» ناشرة الدمار والخراب فى كـل مكان .

وتمكن يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن من احراز انتصار كبير فى وقعة الارك (Alarcos) (٥٩١ هـ / ١٩٥م) ألزم النصرانية السكينة فى الاندلس، واظهر تفوق المغرب بشكل واضح ، حتى ظن أن المشكلة الاسبانية ستنتهى على أيدى المصامدة الى صالح الاسلام .

فى الوقت الذى اعتلى يعقوب المنصور عرش خلافة الموحدين بمراكش (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) ، كان موقف صلاح الدين قـد بدأ يثبت فى مصر والشام ، وذلك بوفاة آخر الفاطميين فى القاهرة (٥٦٧ هـ/١١٧١م) ، ثم وفاة نور الدين (٥٧٠هـ / ١١٧٤م) . وبوصول صلاح الدين ويعقوب الى السلطان يأخـذ الصراع بين النصرانية والاسـلام شكلا جديا ويبـدأ المسلمون يكيلون اللطمات لخصومهم فى الشام وفى الاندلس دون هوادة. ولكن هناك ملاحظة سبقت الاشارة اليها وهى : رغم أن الصراع فى طرفى البحر المتوسط كان صراعا بين أوروبا المسيحية والاسلام بوجه عام ، الا أنه فى كلتا المنطقتين له صفـــاته الخاصة ، فبينمـا يقوم صـلاح الدين بالحرب فى الشام باسم الخلافة العباسية أى الخـلافة السنية التى لهـا السلطان الشرعى ـ اسميا على الاقل ـ على جميع المسلمين ، نجـد أن المجاهد المغربى يقوم بالحرب فى الاندلس باسم خلافته الخاصة أى خلافة الموحدين . هذا من الناحية الشرعية اذ أن عبء الحرب كان واقعـا من الناحية العملية على المتخاصمين الموجودين فى مناطق القتال شرقا أو غربا ـ وذلك اذا استثنينا المساعدات الآتية من الخارج .

بدأ صلاح الدين حملته المظفرة فى الشام فى صيف سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩ م وكللت الحملة باستعادة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وكتب عماد الدين الاصفهانى ـ كاتب صلاح الدين ـ الى ملوك الاسـلام يبشرهم بالنصر

المبين ، الا أن خطر الصليبيين لم يكن قد زال نهائيا ، اذ أن « جي دي لوزينيان » كان يحاصر عكا ، ثم ان سقوط بيت المقدس كان له وقع شديد في أوروبا سيكون من نتائجه قيام الحملة الصليبية الثالثة ، كما وردت الانباء الى صلاح الدين (٥٨٥هـ / ١١٨٩ م) عن استعداد ملك الالمان « فردريك باربا روسا » الذى اتخذ طريق البر مارا بالقسطنطينية على رأس جيش يبلغ ٦٠ ألفا حسب رواية العماد نفسه «١» .

أزعجت هذه الانباء صلاح الدين وقد كان مريضا حينذاك ، ورأى أنه لابد من الاستنجاد بملوك المسلمين ، حتى يمكنه مقاومة جحافل الصليبيين المنتظرة . فأرسل الكتب وبعث الرسل الى مختلف الجهات «٢» . وقد وصلت أيدينا نص رسالتين صدرتا عن ديوان الانشاء بمصر . والمرجح أنهما من انشاء القاضي الفاضل في سنة ٥٨٥هـ ١١٨٩م وسنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠ م.

الرسالة الأولى وردت في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي «٣» ، والثانية في كتاب الروضتين لأبي شامة «٤» . وهي التي حملها عبد الرحمن ابن منقذ رسول صلاح الدين الى المغرب «٥» .

(١) الفتح القسي ، طبعة C. de Landberg بليدن ، ١٨٨٨ ، ص ٢١٥

(٢) الفتح القسي ، طبعة ليدن ، ص ٢٣٤ ؛ ابو شامة ، كتاب الروضتين ، طبعة القاهرة ، حـ ١ ص ١٧٠ .

(٣) صبح الاعشى ، القاهرة ، حـ ٦ ص ٢٦ ــ ٥٣٠ ــ هذه الرسالة كما يحفظها القلقشندي لاتحمل تاريخا ، ولكن يمكن القول بانها كتبت في الفترة التي كان ينتظر فيها صلاح الدين وصول « فردريك باربا روسا » وموت هذا الاخير اى خريف عام ١١٨٩ . انظر Gaudefroy - Demombynes. Mélanges René Basset, Une lettre de Saladin au calife almohade t. II. p. 289.

(٤) كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٠ وما بعده .

(٥) المرجع السابق . نلاحظ هنا ان ابا شامة يقول عن هذه الرسالة الثانية ، انها دونت في ٢٨ من شعبان سنة ٥٦٨هـ/١٥ اكتوبر سنة ١١٩٠م ، وان رسول صلاح الدين غادر الاسكندرية في ١٢ رمضان سنة ٥٨٦هـ / ١٥ اكتوبر سنة ١١٩٠ م في شيني عمارته ١٢٠ رجلا . ولكن رغم التفصيلات الدقيقة التي يعطيها ابو شامة ، فان الشك الذى يحيط بهذه التفصيلات يجعلنا نفضل الرجوع الى ابن عذارى فهو مرجع موثوق به وهو اكثر ضمانا في هذا المضمار(Anonimo de Madrid y Copenhague - Anales del Instituto General y Tecncio, de Valencia, Valence, 1917 نص عربي وترجمة اسبانية بمعرفة الاستاذ H.Huici)

أما الرسالة الاولى فقد ذكرها القلقشندى كنموذج للرسائل الصادرة الى خلفاء الموحدين بالمغرب ، وللنوع الذى يكتب من ملك الى آخر ، والرسم فيه « أن تفتتح الرسالة بالدعاء المناسب للحال ثم يعبر المكتوب عنه عن نفسه بنون الجمع ؛ ويخاطب المكتوب اليه بأمير المؤمنين » «٦» .

وأما الرسالة الثانية التى نقلها أبو شامة ، فهى تضفى على الخليفة الموحدى وعلى صلاح الدين كذلك عددا من الالقاب غير الرسمية ، أى التى أتى بها الكاتب متأثرا بالاسلوب المستعمل وقتذاك والذى كان يعتمد اعتمادا كليا على السجع والمحسنات البديعية المختلفة ، فهو يلقب المنصور الموحدى مثلا بالاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم ، تاج الدولة ، أمير الملة ، صفوة الملوك والسلاطين .

هنا يظهر تضارب فى الشكل بين الرسالتين ؛ يجعلنا نشك فى أنهما نقلتا بأمانة عن الاصل ، أى يجعلنا نشك فى اصالتهما ؛ اذ ليس من المعقول أن يسمح صلاح الدين بتلقيب المنصور فى الرسالة الاولى بأمير المؤمنين ، أى أن يعترف بخلافته ثم يضن عليه بهذا الاعتراف فى الرسالة الثانية . لاسيما وأن هذه الاخيرة كان يحملها الى المغرب رسول له خطره . بمعنى أن صلاح الدين كان جادا فى توثيق علاقته بالموحدين «٧» .

مما يثير الشك كذلك فى اصالة هذه الرسالة أن أبا شامة يقول قبل أن يوردها : « كان بلغنى أن السلطان ــ رحمه الله ــ لما اشتد أمر الفرنج على

(٦) صبح الاعشى ، حـ ٦ ص ٢٦ ــ ٥٢٧ . تلاحظ ان الرسالة عندما تذكر الخليفة الموحدى بعد ذلك تخاطبه بكلمة سيدنا (ص ٢٧ــ٢٨ــ٥٢٩) .

(٧) هنا يمكن التفكير فى ان الرسالة الاولى ربما كانت من صنع القلقشندى فهو كما نرى يضعها كنموذج للرسائل التى يخاطب فيها المكتوب اليه بامير المؤمنين ، هذا مع العلم بأن الرسالة تكرر بعد ذلك مخاطبة المنصور بكلمة سيدنا (انظر الهامش السابق) . هذا واذا قارنا هذه الرسالة برسالة اخرى كتبها القاضى الفاضل نفسه باسم صلاح الدين الى الخليفة المستضىء ببغداد (القلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ٥٠٦) نرى كيف يتكرر لقب امير المؤمنين باستمرار مما يؤيد الشك فى رسالة القلقشندى .

عكا أرسل الى ملك المغرب يستنجد به عليهم ، ليقطع عنهم مادتها من جهة البحر . وكنت أطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح واف ، فان العماد والقاضى لم يتعرضا له فى كتبهما . غير أن العماد ذكر كتابا كتبه القاضى الفاضل الى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسل لاجله » . ويقول بعد ذلك : « ثم أرانى بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه ماكنت أرومه : نسخة كتاب كتبه القاضى الفاضل ونقلته من خطه لابن منقذ » «٨» .

بعد ذلك نقرأ فى كتاب الروضتين أن المؤلف وقف على كتاب « فاضلى للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأى الفاضل ولا هو مختار لها » . فى هذا الخطاب يتضح أن القاضى الفاضل لم يكن يرغب فى كتابة رسالة للمغرب ، ولا فى سفر رسول ، رغم أنه يؤكد أنه لم يكن يكره ذلك . وهو يتكلم بعد هذا عن لقب أمير المؤمنين ، ويقول أنه « لايمكن الا التعريض لا التصريح » ، وفى نهاية الخطاب يتضح أن ابن منقذ رسول صلاح الدين كان يريد أن يكون الخطاب باسم أمير المؤمنين ، لانه لايستطيع أن يخاطب القوم الا بهذه التحية ، وأن صلاح الدين كان يوافقه على ذلك ولكن رأى الفاضل النهائى كان يستصوب ترك اللقب فى الكتاب مبهما ، تاركا الحرية للرسول بمخاطبة الخليفة الموحدى بلقب أمير المؤمنين اذا رأى أن هذا له من القوة ما يؤهله لحمل اللقب ، وأنه على استعداد لمساعدة صلاح الدين «٩» .

كل هذا يظهر أنه كان هناك اختلاف فى الرأى بين رجال البلاط المصرى ، وأنه ربما لعبت الضغائن والحزازات الشخصية دورا مهما فى هذا الشأن ، كما يتضح مما تقدم أن الرسالتين بحالتهما الحاضرة مشكوك فى صحتهما شكلا ، أما من ناحية الموضوع فهما مقبولتان دون نقاش ، فصلاح الدين كان يطلب المعونة من كل أمراء الاسلام ، وفى حالة المغرب هذه كان يطلب المساعدة البحرية من الموحدين ضد النصارى الذين كانوا

---

(٨) كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٠ .
(٩) نفس المرجع ، حـ ٢ ص ٤ ـ ١٧٥ .

يستعدون لغزو الشام ، تساعدهم أساطيل جنوه والبندقية وصقلية وغيرها.

هكذا أقلع أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ من الاسكندرية ووصل افريقية فى شهر رجب سنة ٥٨٦هـ/أغسطس ١١٩٠ «١٠» . وواصل السير بعد ذلك حتى مدينة بجاية من أرض افريقية أيضا . ورغم التكتم الشديد الذى لزمه رسول صلاح الدين بشأن الغرض من رحلته ، فانه قوبل مقابلة طيبة من ولاة وعمال وممثلى يعقوب بافريقية وبالمغرب ، اذ كانت قد وصلتهم تعليمات من المنصور الذى كان مشغولا اذ ذاك بالحرب ضد البرتغال ، هذه الاوامر كانت تلزمهم بألا يسألوا الرسول عن الغرض من رحلته الى المغرب «١١» . ولاغرابة فذلك مظهر من مظاهر الحكم المطلق ، فيعقوب لايريد أن يحل محله أحد فى تصريف أمور دولته ، وهو يريد أن يكون صاحب الكلمة الاخيرة فى كل شأن من شئونها . وطلب الخليفة الموحدى أن يستصحب ابن منقذ الى مدينة فاس لينتظره هناك الى أن يعود من الاندلس «١٢» .

وفى فاس شاهد ابن منقذ عظمة المدينة المغربية الكبيرة التى بهرته بجمالها وكبر حدائقها واتساع ضياعها «١٣» . وقد أصيب المنصور بالمرض اثر عودته من الاندلس الى مراكش ، ورغم مرضه فقد كان يقوم شخصيا بالاشراف على كل شئون الدولة وخاصة خلال مدة النقاهة التى كانت

(١٠) ابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٣ . نلاحظ كما سبق ان اشرنا (هامش ٥) ان ابا شامة (حـ ٢ ص ١٧٣) وابن عذارى لايتفقان على هذا التاريخ ، فالاول يقول ان رسول صلاح الدين لم يصل الى طرابلس الا فى ٢٥ من شوال / ٢٥ من نوفمبر وانه مكث هناك حتى ٨ من ذى القعدة / ٧ من ديسمبر .

(١١) ابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٣ .

(١٢) المرجع السابق ، كتاب الاستبصار ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريز رقم ٢٢٢٥ ص ٢٩ ــ ب . ومؤلف هذا الكتاب وكان يكتب بالمنوب فى شهر رجب سنة ٥٨٧ / يونيه ١١٩١ يقول أن ابن منقذ كان فى فاس فى هذا الوقت منتظرا الاوامر الخليفية أى أوامر يعقوب ، أنظر ابن خلدون ، العبر ، طبعة القاهرة حـ ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوى، الاستقصا ، طبقة القاهرة ، حـ ١ ص١٧٤

(١٣) العمرى ، مسالك الابصار ، ترجمة فرنسية ، طبعة باريز ، ١٩٢٧ ، ص ١٦٠ ، والقلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ١٥٧ ، حيث ينقل عن العمرى .

تنقطع من حين الى حين باشتاد المرض «١٤» . وبعد أن قضى بعض الوقت بعاصمة ملكه ــ مدينة مراكش ، ذهب الى مدينة فاس محمولا على محفة، وكان رسول صلاح الدين مقيما هناك .

وصل المنصور الى فاس أول المحرم سنة ٥٨٨ (١٨ يناير ١١٩٢ م) لمتابعة علاجه الذى سيطول مدة سبعة أشهر . وفى خلال أسبوع أى فى يوم ٦ من المحرم (٢٣ يناير) استقبل المنصور ابن منقذ «١٥» ، حيث قدم اليه الهدية التى حمله اياها صلاح الدين «١٦» ثم شرح الغرض من سفارته وهو رغبة صلاح الدين فى تدخل الاساطيل الموحدية لحصار بلاد الكفار التى ترسل الامدادات الى الصليبيين فى الشرق ، كما يطلب المساعدة على فك الحصار عن عكا وتحريرها «١٧» .

حقيقة أن المعركة من أجل عكا كانت حامية الوطيس ، وصلاح الدين بأسطوله المحدود كان لايستطيع ايقاف الامدادات التى كانت تأتى الى

---

(١٤)عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، طبعة دوزى بليدن ، ص ٢٠٣ ، وابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٦ ، وروض القرطاس ، طبعة Upsala, Tornberg ، ١٨٤٣ ، ص ١٤٤ ، وابن خلدون ، العبر ، حـ ٦ ص ٢٤٥ ، والسلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٦ .

(١٥) كتاب الاستبصار ، مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٢٢٥ ص ٤٩ ــ ب . مؤلف هذا الكتاب الذى يظن أنه كان أحد كتاب الخليفة المغربى لايذكر شيئا عن هذه المقابلة ، اذ من المحتمل أنه كان يعرف أن رد سيده كان سلبيا ، وكل ماذكره هو اعتقاده أن هذه الزيارة لم تكن الا لاعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين الى الخليفة الموحدى كما يقدم الامراء آيات الخضوع الى ساداتهم .

(١٦) كانت الهدية تتكون من : مصحفين كريمين بالخط المنسوب مخيشة بمسك ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين نشابا هندية ، وعدد من السروج المذهبة . انظر ابن خلدون ، العبر ، حاصر ٢٤٦ ، وقابل (ابو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٣) و (السلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٤) .

(١٧) القلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ٥٣٠ ، وابو شامة ، كتاب الروضتين، حـ ٢ ص ١٧٠ وما بعدها ، وانظر Gaudefroy - Demombyne, Mélanges R. Basset, Une lett. de Saladin, t II, p. 288 وابن خلدون العبر ، حـ ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٥ .

أعدائه عن طريق البحر . ولكن الذى يلفت النظر هو أن بطل الاسلام فى شرق البحر المتوسط لم يكن ليجهل قطعا أن زميله المغربى كان يعيش هو أيضا عيشة صراع مستمر ضد النصارى الاندلسيين بنظم رهبانهم ، يعاونهم أمراء الاقطاع الفرنسيون الذين كانت تستهويهم المخاطرات والسعى وراء الثروة فى أسبانيا وفى الاراضى المقدسة . ولاشك أيضا أن صلاح الدين لم يكن ليجهل أن صاحب المغرب كان فى حاجة الى حشد كل قواه البحرية والبرية ، حتى يتمكن من مغالبة أعدائه والزامهم الهدوء والسكينة. وهذا يدفعنا الى التساؤل ! كيف أقدم صلاح الدين على طلبه المعونة البحرية من المنصور ؟ وللاجابة على هذا السؤال نستطيع أن نفترض أن الهيبة التى كان يتمتع بها المجاهد المغربى فى الشرق كان مبالغا فيها بعض الشىء «[18]» ، نتيجة لقوة الاساطيل الموحدية «[19]» . فصلاح الدين كان يرى أن خطر الصليبيين والجهاد ضدهم يحمله عبئا ثقيلا، وأنه ينبغى أن يشاطره المجاهد المغربى هذا العبء ، وأن يتحمل معه بعض المجهود والتضحيات : أليست الاراضى المقدسة لها حرمتها وقدسيتها بالنسبة لجميع المسلمين فى العالم ! اذن فالواجب على المسلمين فى كل مكان حمايتها من خطر الكفار. واذا كانت ممالك الصليبيين فى الشام تستقبل الامدادات والمساعدات الدائمة من أوروبا ، أى من المغرب المسيحى ؛ فالمشرق الاسلامى هو كذلك ينتظر بدوره امدادات ومساعدات أجدى وأقوى من المسلمين بالمغرب «[20]»

---

(١٨) رسالة القلقشندى (صبح ، حـ ٦ ص ٥٢٩) تقول لم نر لكاثرة البحر الا بحرا من أساطيله المنصورة ، فان عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنه ـ أدام الله تمكينه ـ ان يمد الشام منه بعدد كثيف .

(١٩) يقول ابن خلدون (العبر ، حـ ١ ص ٣٧ وما بعده) عند كلامه عن قيادة الاساطيل : « لما استفحلت دولة الموحدين فى الماية السادسة وملكوا العروتين (البرين) اقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ماعرف واعظم ماعهد . انتهت أساطيل المسلمين على عهده ـ يوسف بن عبد المؤمن أبو المنصور ـ فى الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا » .

(٢٠) القلقشندى ، صبح ، حـ ٦ ص ٥٢٨ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧١ .

ولكن رغم أن ابن منقذ استعمل كل ما أوتى من مقدرة ومواهب فى مديح يعقوب والاشادة بمجده «٢١» ، الا أن اجابة المنصور لم تكن فى صالحه تماما . فمع أنه خرج راضيا من الناحية الشخصية ، مغمورا بالهدايا والاعطيات ، الا أنه أصيب بفشل تام فيما يتعلق بالغرض من سفارته ، بمعنى أنه لم ينل المساعدة البحرية المنشودة «٢٢» .

اذا حاولنا أن نتعرف على الاسباب التى دعت المنصور الى عدم اجابة طلب صلاح الدين فاننا نجد كثيرا من التفسيرات . أولها مساعدة «المماليك» المصريين — أتباع تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أخى صلاح الدين — لبنى غانية فى ثورتهم بافريقية ضد المنصور ، والتى كان صلاح الدين يظهر فيها ، ولو بصفة غير مباشرة ، بمظهر الشريك الذى لايمكنه التهرب من المسئولية . ففى سنة ٥٦٨هـ/٢—١١٧٣م خرجت جماعة من الترك المصريين (الغز أو الأغز أو الأغزاز) تحت قيادة قراقوش وبوزبا من أتباع تقى الدين

---

(٢١) هنا نجد ان ابن منقذ لايتردد فى تلقيب المنصور بامير المؤمنين فيقول فى قصيدته :

اليك امير المؤمنين ولم نزل الى بابك المأمول ترجى الرواحل

انظر السلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٥ ، ابو شامة ، كتاب الروضتين حـ ٢ ص ١٧٤ حيث ينقل هذا الشعر ولكنه يضع لقب امير المسلمين بدلا من امير المؤمنين اى اللقب الذى هو اقل من اللقب الخلافى . ولكن من المرجح ان ابن منقذ لم يكن ليستطيع الا الاعتراف بالخلافة المؤمنية أثناء وجوده فى المجتمع الموحدى بالمغرب . وقد سبق أن رأينا أن ابن منقذ كان يصر على أن يحيى المنصور بهذا اللقب وذلك قبل مغادرته مصر .

(٢٢) يقال انه مدح المنصور بقصيدة من اربعين بيتا فمنحه عن كل بيت الف درهم وقال انما اعطيناه لبيته ، ويعلق السلاوى على هذه العبارة الاخيرة قائلا (الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٥) يعنى انه لم يعطه من اجل صلاح الدين . هنا نلاحظ ان ابن خلدون ، العبر ، حـ ٦ ص ٢٤٦ ، ينسى مبادىء التاريخ العلمى حسب ما يعرضها فى مقدمته ، فبعد أن يقول أن المنصور اعتذر عن عدم امكانه القيام بالمساعدة البحرية المنشودة ، يعود فيقول انه — حسب رواية اخرى — عبأ المنصور لصلاح الدين ١٨٠ مركبا وان هذه منعت النصارى من سواحل الشام .

متجهة نحو افريقيـــة والمغرب «٢٣» وبدأت بتوطيد سلطانها بطرابلس تحت زعامة قراقوش الذى سيعظم شأنه ويلتصق اسمه بحوادث طرابلس وافريقية فى هذه الفترة وبالتالى بدولة الموحدين .

وهنـــاك سؤال يصعب الاجابة عليـــه هو ماذا كان هـــدف قراقوش وأصحابه ؟ والظـــاهر أن الذين يهمهم هـــذا الامر لم يكونوا ليستطيعوا الاجابة على هذا السؤال . هل كان هدفهم ايجاد مأوى يلجأ اليه صـــلاح الدين فى حالة ماذا انتهى التنافس بينه وبين نورالدين باتتصار الاخير «٢٤»؟ أم لمناصرة البدو من بنى هلال وبنى سليم وبنى غانية ، لمحاولة اعادة بنـــاء الدولة المرابطية ، تحت اشراف صلاح الدين وسيادة الخلافة العباسية ! أم أن قراقوش خرج من مصر ليعمل لحســـابه فى المغرب جريا وراء السلطان والثروة والمغامرة ! ان ســـير الحوادث ـــ اذ هو يوما مع الموحدين ويوما ضدهم ـــ يجعلنا نميل الى الاخذ بهذا الرأى .

فى أول حكم المنصور سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م قام بنوغانية حكام ميورقة (جزر البليار الحالية) . وهم عائلة من المرابطين لم يستطع الموحدون غزو جزرهم، بحملة على افريقية ضـــد أعدائهم الموحدين ، وبدأو بفتح بجاية والجزائر ومليانة وغيرها «٢٥» . ولم تستطع جيوش الموحـــدين أن تقضى عليهم فى

---

(٢٣) التيجانى ، ترجمة فرنسية Voyage du Cheikh at-Tijani dans la régence de Tunia, trad. Tousseau (A.), Paris,1853, p. 102 cf suivantes يذكر التيجانى قراقوش وابراهيم بن فراكثين ، ابو شامة ، كتاب الروضتين، حـ ٢ ص ١٧١ ، يذكر قراقوش وبوزيا وقد اخذنا به ، كتـــاب الاستبصار ، مخطوطه باريز ص ٥٨ ، يسميه ابوزيا ، بينما هناك خطاب رسمى موحدى (Trente-sept lettres officielles almohades, textes arabes, éd. Rabat, 1941, p. 198, études par E. Lévi-Provenançal, Paris, 1942, p.62) يسميه ابو زيان ؛ انظـــر ابن عذارى ، (Anonimo) ص ٥٣ ، ابن خلدون العبر ، حـ ٥ ص ٢٨٦ (ينقل التيجـــانى) ؛ وانظـــر A. Bel, Les Banu Ganiya, p.61 et suiv.

(٢٤) التيجانى ، الرحلة ، الترجمة الفرنســـية ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، حـ ٥ ص ٢٨٦ .

(٢٥) انظر هامش ٢٣ .

تلك الجهـات بل سيظل الصراع سجالا بين كر وفر مدة طويلة (حوالى نصف قرن) .

بنو غانيـة هؤلاء قاموا بحملتهم هذه باسم الخلافة العباسـية وتحت أعلامها السوداء «٢٦» . وباندفاعهم نحوطرابلس أثناء الصراع ، وجـدوا لانفسهم هناك حلفاء طبيعيين هم المماليك المصريون على رأسهم قراقوش ، ثم من كان يتعاون معهم من عرب هلال وسليم مثل جشم ورياح والاثيج الذين أجابوا دعوة الميورقيين لمساعدتهم «٢٧» . والحقيقة كان من السهل أن تتفق أهواء بنى غانيـة الذين يريدون الثـأر من الموحدين ، ومحاولة اقتطـاع الولاية الشرقية من دولتهم ، مع مصـالح الترك المصريين وذلك لاسباب سياسـية وأخرى دينية من السهل ادراكهـا : فالمماليك كان من مصلحتهم نشر نفوذ مصر الاسمى على الاقل فى هـذه البـلاد ، وكذلك اضعاف سلطان الموحدين هناك ، ثم انهم بعد ذلك يستطيعون أن يؤيدوا مطامعهم الشخصيـة باعلان دوافع دينية كالتى أعلنهـا الميورقيون وهى الاعتراف بخلافة بغداد باعتبارها السلطة الشرعيـة الوحيدة فى المغرب . هكذا بدأ بنو غانية والمماليك المصريون بالعمل سويا ضد الموحدين ، بل وتمكنوا من انزال هزائم منكرة بهم ، حتى أن افريقية كلها سقطت فى وقت بأيديهم عدا مدينتين هما تونس والمهدية «٢٨» . وقام ابن غانية بعمل سياسى بارع ، وهو أنه الى جانب رفع الاعـلام العباسية أرسل ابنه مع كاتبـه عبد البر بن فرسان الى الخليفـة الناصر بن المستضىء «٢٩» لاعلان الطاعة لهذا الخليفة ، وطلب الخلع والاعلام السوداء منه . وكان من الطبيعى أن

---

(٢٦) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ . ابن عذارى (Anenimo) ص ٤٤ .

(٢٧) التيجانى ، الرحلة ، الترجمة الفرنسـية ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، حـ ٥ ص ٢٨٦ ، حـ ٦ ص ٢٠ وما بعده .

(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، طبعة طورنبرج ، بليدن ، حـ ١١ ص ٣٤٢ .

(٢٩) ابن خلدون، العبر، حـ ٦ص١٩٢ ، انظر المقرى ، نفح الطيب ، حـ ٢ ص ٢ — ٦٤٣ .

يقابل ديوان الخليفة ببغداد هذه البعثة قبولا حسنا ، وأن يمنح ابن غانية ما كان يمنحه للمرابطين من ميزات لاسيما لقب « أمير المسلمين » ، وأن يطلب الى صلاح الدين أن يناصر الميورقيين فى كفاحهم «٣٠» . ورغم هذا فقد انتهى الصراع بأن عمل بنو غانية وحدهم ، أما المماليك المصريون فقد طلبوا الامان من الموحدين ، فأرسل المنصور جزءا كبيرا منهم الى المغرب الأقصى ، للعمل فى الجيش النظامى بالعاصمة «مراكش» «٣١» .

كان صلاح الدين يعلم أن أعمال أتباعه هؤلاء تعتبر أعمالا عدائية بالنسبة للموحدين ، وأن المنصور ربما آخذه على ذلك ، ومنع المعونة اللازمة له . وعلى ذلك فان ابن منقذ أحيط علما بهذا ، وطلب اليه أن يعتذر عن ذلك بأن المملوكين اللذين خرجا من مصر سنة ٥٦٨ هـ ان هما الا شخصان لاخطر لهما على الاطلاق ، اذ هما من « نهايات الرجال وليسا من وجوه المماليك والامراء » ، وأنهما ليسا من أولئك الرجال الذين « اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد افتقد » ، فهو يستعيذ بالله من أن يأمر مفسدا يفسد فى الارض .

كان من السهل اذن على صلاح الدين أن يعتذر عما فعله مملوك ابن أخيه بالمغرب ، ولكن لم يكن هناك ما يحمل المنصور على أن يصدقه أو يقبل عذره . فموقفه كان غامضا بل ربما كان مسئولا عما حدث ولو بطريقة غير مباشرة كما رأينا ، ولاشك أن هذا كان سببا كافيا لان يرفض المنصور تقديم بحريته لمن كان يناهضه . ويضاف الى هذا ما أشرنا اليه من عدم اعتراف صلاح الدين للخليفة الموحدى بلقب أمير المؤمنين ، وهو اللقب الذى انتحله الموحدون لانفسهم «٣٢» .

---

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، حـ ٦ ص ١٩٢ .

(٣١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٦٠ ، ابن الاثير ، حـ ١ ص ٣٠٩ ، انظر G. Marcais, Les Arabes en Berberie du XIe au XIVe siècles, Constantuin-Paris,1913,pp. 198 et suivantes.

(٣٢) انظر ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٤ ص ٣٨١ الذى يقول ان صلاح الدين كتب اليه بلقب أمير المسلمين وليس بلقب أمير المؤمنين ، قابل ابو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٤ ، السلاوى ، الاستقصا ، حـ ١ ص ١٧٤ .

هذه الاسباب وتلك العلل لها قيمتها وربما كان لها تأثيرها ، الا أنهـا تظهر ثانوية بالنسبة للعوامل الاخرى التى لها صبغتها الجدية . ففى هـذا الوقت كان المنصور مريضـا ، ولم تكن فترة مرضه خطيرة على شخصـه فحسب بل على حياة دولتـه أيضا ، فكان عليه قبل أن يفكر فى مسـاعدة المسلمين بالمشرق أن يركز اهتمامه لاستتباب الامن والسلام داخل دولته ؛ وأن يتتبع كل محاولة آثيمة ضد خلافته . ففي هذه الاثناء نراه يقتل أخاه أبا يحيى الذى أراد أن يدعو الى البيعة لنفسه بدلا من أبى محمد عبد الله ابن المنصور الذى كان أعلن وليا للعهد فى هـذا الوقت «٣٣» . والى هذا فان موقف المنصور لم يكن أفضل من موقف صلاح الدين ، فهو لم يكن يستطيع أن يقدم المعونة البحرية المنشودة ، والتى كان يرغبها من غير شك جميع المسلمين ، لانه فى حاجة الى كل قواته البحرية لمواصلة الصراع ضد الميورقيين القراصنة ، ثم انه كان عليه أن يحمل كل قواته البرية الى أسبانيا عبر المضيق ، وأن يؤمن طريق مواصلاته ضـد قوات أعدائه البحـرية ؛ والدفاع عن ثغور الاسلام فى الغرب ضد كل خطر بحرى مثل ذلك الذى دعا الى سقوط شلب (Silvès) بين أيدى البرتغال سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٦م «٣٤» . وستثبت الحوادث التالية فى أسبانيا أن المنصور كان محقـا عندما رفض توزيع قواته ، كمـا أن الانتصارات العظيمة التى سيحرزها ضـد ممالك النصارى الفتية هناك ، و لاسيما انتصاره الباهر فى موقعة الارك ضـد قشتاله ، ستثبت أن تقديره للموقف لم يكن خاطئا .

يتضح مما سبق أن طلب صلاح الدين المساعدة من المغرب أثناء كفاحه ضد المسيحية فى سبيل تحرير الاراضى المقدسـة قوبل بالرفض من جانب المنصور الموحدى ، ذلك الرجل الذى كان «مظهرا للشريعة غازيا» «٣٥» .

---

(٣٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠٤ .

(٣٤) ابن عذارى (Amonimo) ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ؛ ابن خلكان ، الوفيـات ، حـ ٣ ص ٣٧٥ ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص١٩٦ ؛ الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٦ .

(٣٥) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، حـ ٢ ص ١٧٤ .

والذى كان متعصبا للاسلام الى أقصى حد .

ولكن رفض مثل هذا الطلب العزيز على قلوب المسلمين جميعا لم يكن ليتم دون أن يكون له صدى لاسيما وأن المغاربة كانوا يجاهدون الى جانب اخوانهم المشارقة بالشام «٣٦» . ذلك الصدى سيظهر بعد وفاة المنصور سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩ م . فقد نبتت رواية تقول ان المنصور لم يمت وانما زهد فى الدنيا وساح فى الارض نحو الشرق متعبدا . كان ابن خلكان أول من أثار هذه المسألة «٣٧» ذاكرا أنه يوجد فى قرية قريبة من المجدل بفلسطين قبر يؤكد الجميع أنه قبر يعقوب المنصور ، ومع هذا فقد عاد ابن خلكان وذكر أن المنصور مات بالمغرب .

هذه المتناقضات التى ينقلها أغلب الكتاب المتأخرين عن ابن خلكان تدعونا الى محاولة النظر فى هذه المشكلة قبل وضعها فى صف الخرافات والاعتقادات الشعبية الزائفة . ومن الغريب حقيقة أننا نجد فى تاريخ الموحدين كثيرا من الغموض الذى يحيط بنهاية كثير من شخصياته الكبيرة «٣٨» . ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة بأسباب كثيرة : منها الصدفة المحضة ، ومنها اغراض المؤرخين المتأخرين وخاصة من كتب منهم أيام بنى مرين أعداء الموحدين وخلفائهم بالمغرب الاقصى ، ومنها عادات وتقاليد المجتمع المغربى الذى يتعلق بالاشياء الخرافية والخارقة للعادة . ولكن هناك سؤالا لابد من البحث له عن جواب . وهو اذا كان من المعقول أن يتعلق المغاربة بأميرهم العظيم الى درجة تمنعهم من أن يجعلوه يموت طبيعيا

(٣٦) انظر ابن جبيره الرحلة ، طبعة ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٣٠٧ .

(٣٧) الوفيات ، حـ ٣ ص ٣٧٩ ، المقرى ، النفح ، حـ ٢ ص ١١٩٠ ، السلاوى الاستقصا ، حـ ١ ص ١٨٤ .

(٣٨) عن موت القائد الونشريشى انظر ابن الاثير ، حـ ١٠ ص ٤٠٧ ، عن وفاة محمد بن تومرت انظر روض القرطاس لابن ابى زرع ، ص ١١٨ (CF. EF. Gautier, Passéde Afrique p66-7) عن مصرع يوسف بن عبد المؤمن انظر ابن الاثير ، حـ ١٠ ص ٣٣١ ، ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٣ ص ٤٦٥ ، المقرى ، النفح ، حـ ٢ ص ١١٨٨ ، عن وفاة ابى عبد الله محمد الناصر انظر ابن خلكان ، الوفيات ، حـ ٣ ص ٣٨٢ .

كما يموت غيره ، وتدفعهم الى أن يحيطوا موته بهالة من الغموض والعظمة، فكيف نفسر ما يقوله المشارقة من أن قبره موجود بأرضهم بالشام حسب مايؤكده ابن خلـكان ! هذه النقطة التى دعت السلاوى «٣٩» الى عـدم اهمال هـذه الرواية ووضعها فى صف الخرافات الشعبيـة كما فعل ابن الخطيب «٤٠» والمقرى «٤١» . ولمحاولة الرد على هذا السؤال نحاول النظر فى المسـألة من الناحية التاريخية الصرفة : يتبين من المصادر الموثوق بهـا ـ رغم اختلافها بالنسبة لتحديد تاريخ وفاة المنصور ـ ان المنصور توفى فى الشهور الأولى من سنة ٥٩٥هـ ، وهناك احتمال كبير فى أن يكون قـد مات يوم ٢٣ من ربيع الأول من هـذه السنة (٢٢ يناير سنة ١١٩٩) «٤٢» كما يمكن التأكيد بأنه دفن فى مدينة تنملل الى جانب ابن تومرت وجده وأبيه «٤٣» . ورغم أن موقف الدولة كان قـد تحسن فى اسبانيا بانهزام النصارى أمام جيوش الموحدين فانه لم يكن قـد استقر بعد فى افريقية لوجود بنى غانية ، ثم أن ولى العهد لم يكن قد بلغ العشرين ، وعلى هذا لم تكن الظروف تسمح للمنصور بأن يتخلى عن مهام الحكم ليتفرغ للعبادة والرحلة المتصوفة نحو الشرق . ولكنا فى نفس الوقت نعلم أنه كان قد

---

(٣٩) الاستقصا ، حـ ١ ص ١٨٤ .

(٤٠) رقم الحلل ، ص ٥٩ .

(٤١) النفح ، حـ ٢ ص ١١٩ .

(٤٢) ابن عذارى (Anonimo) ص ٨١ . يقول المؤلف أن ابنه محمدا اعتلى العرش يوم ٢٣ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، روض القرطاس ، ص ١٤٢ ، ١٥٢ يقول انه مات ليلة الجمعة ٢٢ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ (٢٨ ربيع الاول ٥٩٥) ابن الابار ، تكملة الصلة ، طبعة Cookra بمدريد سنة ١٨٨٧ ، حـ ١ ص ٢٧٠ (شهرا بعد موت ابن رشد الذى توفى فى ٩ من صفر سنة ٥٩٥) ، ابن الاثير ، حـ ١٢ ص ٩٥ (١٨ من ربيع اثانى سنة ٥٩٥ ، ١٨ من جمادى الاول سنة ٥٩٥) ، الحلل الموشية لمؤلف مجهول، طبعـة الرباط ، ص ٣٤ (ربيع الاول سنة ٥٩٥) ، عبـد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٢٤ (أول صفر سنة ٥٩٥) ، ابن خلـكان ، الوفيات ، حـ ٢ ص ٣٧٩ (أول جمادى الاول ٥٩٥ ، ١٧ ربيع الثانى ، اول صفر) .

(٤٣) الحلل الموشية ، طبعة الرباط ، ص ١٣٤ ، روض القرطاس ، ص ١٤٢، انظر F. Ferriol, Les ruines de Tinmel, Hespéris, 1922, p. 163.

أظهر الرغبة فى المسير الى الشرق ومصر لتطهيرها من البدع واظهار الدين الصحيح «٤٤» . ونحن نتذكر أن هذه الفرصة كانت سنحت له عندما طلب صلاح الدين اليه أن يمده بالمعونة العسكرية التى كان يرغب فى تحقيقها كل المسلمين .

نظن أن رفض المنصور تلك المساعدة كان له صدى فى نفوس المغاربة المقيمين بالشرق ، وكان عدد كبير منهم يحارب بالشام . هذا الصدى هو الذى دعا الى نسج خيوط هذه القصة القائلة بأنه ترك سلطانه واتخذ طريق الاراضى المقدسة ـ حيث لقى النصارى صدمات عنيفة من المسلمين ـ وهناك مات قرب المجدل . نستنتج من هذا أنه يمكن اعتبار رحلة الزهد هذه فى نظر مؤلفى هذه القصة كاعتذار من جانب المنصور يشترى به نفسه ، وكمثل من أمثلة الورع والدين الصحيح يضربه المغرب للمشرق . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أيضا أن القصة الخرافية التى ظهرت ـ وهذا شىء غريب ـ فى المشرق انما هى مغربية الاصل . يؤيد ذلك قصة مغربية ـ لحما ودما هذه المرة ـ تقول أن يعقوب لم يتجه نحو الشرق من أجل التعبد والزهد ، انما ذهب الى الاندلس كمرابط فى الثغر للجهاد ضد الكفار «٤٥» .

---

(٤٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠٦ ـ انظر ابن جبير ، الرحلة ، طبعة ليدن ، ١٩٠٧ ص ٥٣ ، ٧٨ ، ٧٩ (يرى الكاتب الذى يزور مصر فى تلك الفترة أن كل الدلائل تظهران الموحدين سيفتحون مصر وأن المصريين انفسهم يتشوقون الى ذلك) .

(٤٥) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، طبعة قسطنطينة ، ١٩٥ ص ١١ .